سورة الحجر

١ـ **سميت هذه السورة سورة الحجر،** ولا يعرف لها اسم غيره، ووجه التسمية أن اسم الحجر لم يذكر في غيرها.

والحجر: اسم البلاد المعروفة به وهو حجر ثمود، وثمود هم أصحاب الحجر.

وسيأتي الكلام عليه عند قوله ـتعالىـ: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ ﴾.

والمكتِّبون في كتاتيب تونس يدعونها سورة: ﴿ رُبَمَا ﴾ لأن كلمة: ﴿ رُبَمَا ﴾ لم تقع في القرآن كله إلا في أول هذه السورة.

وهي مكية كلها، وحكي الاتفاق عليه.

وعن الحسن استثناء قوله ـتعالىـ: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنْ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ بناء على أن سبعاً من المثاني هي سورة الفاتحة، وعلى أنها مدنية، وهذا لا يصح؛ لأن الأصح أن الفاتحة مكية.

واستثناء قوله ـتعالىـ: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ بناءً على تفسيرهم ﴿ الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ بأهل الكتاب وهو صحيح، وتفسير ﴿ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ أنهم قالوا: ما وافق منه كتابنا فهو صدق، وما خالف كتابنا فهو كذب.

ولم يقل ذلك إلا يهود المدينة، وهذا لا نصححه ـ كما نبينه عند الكلام على تلك الآية ـ. ١٤/٥ـ٦

٢ـ **وعدد آيها** تسع وتسعون باتفاق العادّين. ٦/١٤

٣ـ **مقاصد هذه السورة:** افتتحت بالحروف المقطّعة التي فيها تعريضٌ بالتحدي بإعجاز القرآن.

وعلى التنويهِ بفضل القرآن وهديه.

وإنذارِ المشركين بندمٍ يندمونه على عدم إسلامهم، وتوبيخِهم بأنهم شغلهم عن الهدى انغماسُهم في شهواتهم، وإنذارِهم بالهلاك عند حلول إبّان الوعيدِ الذي عينه الله في علمه.

وتسليةِ الرسول ﷺ على عدم إيمان من لم يؤمنوا، وما يقولونه في شأنه، وما يتورّكون بطلبه منه، وأن تلك عادةُ المكذبين مع رسلهم.

وأنهم لا تجدي فيهم الآياتُ والنذرُ لو أسعفوا بمجيء آيات حسب اقتراحهم به، وأن الله حافظُ كتابِه من كيدهم.

ثم إقامةُ الحجة عليهم بعظيم صنع الله، وما فيه من نعم عليهم، وذكرُ البعثِ ودلائلِ إمكانه.

وانتقل إلى خلقِ نوع الإنسان وما شرف الله به هذا النوع، وقصةِ كفرِ الشيطان.

ثم ذكر قصة إبراهيم ولوط ـعليهما السلامـ وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر.

وختمت بتثبيت الرسول ﷺ وانتظار ساعةِ النصر، وأن يصفح عن الذين

يؤذونه، ويكل أمرهم إلى الله، ويشتغل بالمؤمنين، وأن الله كافيه أعداءه.

مع ما تخلل ذلك من الاعتراض[١] والإدماج[٢] من ذكر خلق الجن، واستراقِهم السمعَ، ووصفِ أحوالِ المتقين، والترغيبِ في المغفرة، والترهيبِ من العذاب. ١٤/٧

٤ـ **وخفض الجناح:** تمثيل للرفق والتواضع بحال الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع خفض جناحه يريد الدنو، وكذلك يصنع إذا لاعب أنثاه، فهو راكن إلى المسالمة والرفق، أو الذي يتهيأ لحضن فراخه، وفي ضمن هذه التمثيلية استعارة

---

١ ـ **الاعتراض:** هو من ضروب الإطناب، الذي هو أحد أبواب علم المعاني أحد أقسام علم البلاغة.

والاعتراض: هو أن يُؤتَى في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنىً ـ بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب.

وهو من دقائق البلاغة، وله فوائد عديدة.

ومن أمثلته قوله ـتعالى ـ: ﴿ وَيَجْعَلُوْنَ للهِ البَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُوْنَ ﴾.

فقوله: ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ جملة؛ لأنه مصدر بتقدير الفعل، وقعت في أثناء الكلام؛ لأن قوله: ﴿ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُوْنَ ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿ للهِ البَنَاتِ ﴾ عطف على مفردات، فـ ﴿ لَهُمْ ﴾ عطف على ﴿ لله ﴾ و﴿ مَا يَشْتَهُوْنَ ﴾ عطف على البنات. انظر معجم البلاغة العربية د. بدوي طبانة ص٤١٤.

٢ ـ **الإدماج:** أحدُ ضروب الإطناب، وهو أن يُدمج المتكلم غرضاً في جملة من المعاني قدْ نحاه؛ ليوهم السامع أنه لم يقصده، وإنما عرض في كلامه لتتمة معناه الذي قصد.

ومن أمثلة ذلك قول الله ـتعالى ـ: ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُوْنَ شَهْراً ﴾.

ومعناه أن الوالدة تكلفت بحمل مولودها، ورضاعه ثلاثين شهراً، وأدمج فيه أن أقل الحمل ستة أشهر؛ إذ يسقط من الثلاثين شهراً ـ حَوْلان؛ للرضاع، بدليل قوله ـتعالى ـ: ﴿ والوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾.

فيبقى للحمل ستة أشهر، وهو أقله. انظر معجم البلاغة العربية ص٢٢٧ـ٢٢٨.

مكنية، والجناح تخييل، وقد بسطناه في سورة الإسراء في قوله: ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ ﴾.

وقد شاعت هذه التمثيلية حتى صارت كالمثل في التواضع واللين في المعاملة.

وضد ذلك رفع الجناح تمثيل للجفاء والشدة. ١٤/٨٣

سورة النحل

١ـ **سميت هذه السورة عند السلف سورة النحل،** وهو اسمها المشهور في المصاحف، وكتب التفسير، وكتب السنة.

ووجه تسميتها بذلك أن لفظ النحل لم يذكر في سورة أخرى.

وعن قتادة أنها تسمى سورة النِّعَم -أي بكسر النون وفتح العين-.

قال ابن عطية: «لما عدد الله فيها من النعم على عباده».

وهي مكية في قول الجمهور وهو عن ابن عباس وابن الزبير.

وقيل؛ إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة مُنْصَرَفَ النبي ﷺ من غزوة أحد، وهي قوله -تعالى-: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ إلى آخر السورة، قيل: نزلت في نسخ عَزْمِ النبي ﷺ على أن يمثل بسبعين من المشركين أن أظفره الله بهم؛ مكافأة على تمثيلهم بحمزة.

وعن قتادة وجابر بن زيد أن أولها مكي إلى قوله -تعالى-: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ فهو مدني إلى آخر السورة. ١٤/٩٣

٢ـ **أغراض هذه السور:** معظمُ ما اشتملت عليه السورة إكثارٌ متنوعُ الأدلة على تفرد الله -تعالى- بالإلهية، والأدلةُ على فساد دين الشرك، وإظهارُ شناعته.

وأدلة إثبات رسالة محمد ﷺ، وإنزال القرآن عليه ﷺ.

وأن شريعةَ الإسلامِ قائمةٌ على أصول ملة إبراهيم -عليه السلام-.

وإثباتُ البعث والجزاء؛ فابتدئت بالإنذار بأنه قد اقترب حلول ما أنذر به

المشركون من عذاب الله الذي يستهزئون به، وتلا ذلك قرعُ المشركين، وزجرُهم على تصلبهم في شركهم وتكذيبهم.

وانْتُقِل إلى الاستدلال على إبطال عقيدة الشرك؛ فابتدئ بالتذكير بخلق السماوات والأرض، وما في السماء من شمس وقمر ونجوم، وما في الأرض من ناس وحيوان ونبات وبحار وجبال، وأعراض الليل والنهار.

وما في أطوارِ الإنسان وأحواله من العبر.

وخُصَّتِ النحلُ وثمراتُها بالذكر؛ لوفرة منافعها والاعتبارِ بإلهامها إلى تدبير بيوتها، وإفرازِ شَهْدِها.

والتنويهُ بالقرآن، وتنزيهُه عن اقتراب الشيطان، وإبطالُ افترائهم على القرآن.

والاستدلالُ على إمكان البعث، وأنه تكوينٌ كتكوين الموجودات.

والتحذيرُ مما حل بالأمم التي أشركت بالله وكذبت رسله -عليهم السلام- عذابَ الدنيا، وما ينتظرهم من عذاب الآخرة، وقابل ذلك بضده من نعيم المتقين المصدقين والصابرين على أذى المشركين والذين هاجروا في الله وظلموا.

والتحذيرُ من الارتداد عن الإسلام، والترخيصُ لمن أكره على الكفر في التَّقِية من المكرهين.

والأمرُ بأصول من الشريعة؛ من تأصيلِ العدل، والإحسانِ، والمواساةِ، والوفاءِ بالعهدِ، وإبطالِ الفحشاءِ والمنكرِ والبغيِ، ونقضِ العهودِ، وما على ذلك من جزاء بالخير في الدنيا والآخرة.

وأُدْمِجَ في ذلك ما فيها من العبر والدلائل، والامتنان على الناس بما في ذلك

من المنافعِ الطيبات المنتظمة، والمحاسن، وحسن المناظر، ومعرفة الأوقات، وعلاماتِ السير في البر والبحر، ومن ضرب الأمثال.

ومقابلةُ الأعمال بأضدادها.

والتحذيرُ من الوقوع في حبائل الشيطان، والإنذارُ بعواقب كفران النعمة.

ثم عرض لهم بالدعوة إلى التوبة ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ إلخ...

وملاكُ طرائقِ دعوةِ الإسلام ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ ﴾.

وتثبيت الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ووعده بتأييد الله إياه. ١٤/٩٤ـ٩٦

٣ـ ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨) ﴾ اعتراض في آخر الكلام أو في وسطه على ما سيأتي.

و﴿ يَخْلُقُ ﴾ مضارع مراد به زمن الحال لا الاستقبال، أي هو الآن يخلق ما لا تعلمون أيها الناس مما هو مخلوق لنفعهم وهم لا يشعرون به، فكما خلق لهم الأنعامَ، والكُراعَ خلق لهم، ويخلق لهم خلائق أخرى لا يعلمونها الآن؛ فيدخل في ذلك ما هو غير معهود، أو غير معلوم للمخاطبين، وهو معلوم عند أمم أخرى كالفيل عند الحبشة والهنود، وما هو غير معلوم لأحد ثم يعلمه الناس من بعد، مثل: دواب الجهات القطبية كالفَقْمة، والدب الأبيض، ودواب القارة الأمريكية التي كانت مجهولة للناس في وقت نزول القرآن؛ فيكون المضارع مستعملاً في الحال للتجديد، أي هو خالق ويخلق.

ويدخل فيه كما قيل ما يخلقه الله من المخلوقات في الجنة، غير أن ذلك خاص

بالمؤمنين؛ فالظاهر أنه غير مقصود من سياق الامتنان العام؛ للناس المتوسل به إلى إقامة الحجة على كافري النعمة.

فالذي يظهر لي أن هذه الآية من معجزات القرآن الغيبية العلمية، وأنها إيماء إلى أن الله سيلهم البشر اختراع مراكب هي أجدى عليهم من الخيل، والبغال، والحمير، وتلك العجلات التي يركبها الواحد، ويحركها برجليه وتسمى (بسكلات) وأرتال السكك الحديدية، والسيارات المسيَّرة بمصفى النفط وتسمى (أطوموبيل) ثم الطائرات التي تسير بالنفط المصفى في الهواء؛ فكل هذه مخلوقات نشأت في عصور متتابعة لم يكن يعلمها من كانوا قبل عصر وجود كل منها.

وإلهام الله الناس لاختراعها هو ملحق بخلق الله؛ فالله هو الذي ألهم المخترعين من البشر بما فطرهم عليه من الذكاء والعلم، وبما تدرجوا في سلم الحضارة، واقتباس بعضهم من بعض إلى اختراعها؛ فهي بذلك مخلوقة لله -تعالى- لأن الكل من نعمته. ١٤/١١٠-١١١

٤- ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) ﴾.

جملة معترضة، اقتضت اعتراضَها مناسبةُ الامتنانِ بنعمة تيسير الأسفار بالرواحل، والخيل، والبغال، والحمير.

فلما ذُكرت نعمةُ تيسير السبيل الموصلة إلى المقاصد الجثمانية ارتقي إلى التذكير بسبيل الوصول إلى المقاصد الروحانية وهو سبيل الهدى؛ فكان تعهد الله بهذه السبيل نعمةٌ أعظم من تيسير المسالك الجثمانية؛ لأن سبيل الهدى تحصل به السعادة الأبدية.

وهذه السبيل هي موهبة العقل الإنساني الفارق بين الحق والباطل، وإرسال الرسل لدعوة الناس إلى الحق، وتذكيرهم بما يغفلون عنه، وإرشادهم إلى ما لا تصل إليه عقولهم أو تصل إليه بمشقة على خطر من التورط في بُنَيَّات الطريق. ١٤/١١١ـ١١٢

٥ـ **ومن لطيف النوادر ما في الكشاف:** أن من تأويلات الروافض أن المراد بالنحل في الآية علي وآله.

وعن بعضهم أنه قال عند المهدي: إنما النحل بنو هاشم يخرج من بطونهم العلم، فقال له رجل: جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بني هاشم، فضحك المهدي، وحدث به المنصور؛ فاتخذوه أضحوكة من أضاحيكهم.

قلت: الرجل الذي أجاب الرافضي هو بشار بن برد، وهذه القصة مذكورة في أخبار بشار. ١٤/٢١٠

٦ـ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾.

لما جاء أن هذا القرآن تبيان لكل شيء، وهدى، ورحمة، وبشرى للمسلمين حسن التخلص إلى تبيان أصول الهدى في التشريع للدين الإسلامي العائدة إلى الأمر والنهي؛ إذ الشريعة كلها أمر ونهي، والتقوى منحصرة في الامتثال والاجتناب؛ فهذه الآية استئناف لبيان كون الكتاب تبياناً لكل شيء؛ فهي جامعة أصول التشريع. ١٤/٢٥٤

٧ـ ومرجع تفاصيل العدل إلى أدلة الشريعة؛ فالعدل هنا كلمة مجملة جامعة

وفهي[1] بإجمالها مناسبة إلى أحوال المسلمين حين كانوا بمكة؛ فيصار فيها إلى ما هو مقرر بين الناس في أصول الشرائع، وإلى ما رسمته الشريعة من البيان في مواضع الخفاء؛ فحقوق المسلمين بعضهم على بعض من الأخوَّة والتناصح قد أصبحت من العدل بوضع الشريعة الإسلامية.

وأما الإحسان فهو معاملة بالحسنى ممن لا يلزمه إلى من هو أهلها.

والحسن: ما كان محبوباً عند المعامل به ولم يكن لازماً لفاعله، وأعلاه ما كان في جانب الله -تعالى- مما فسره النبي ﷺ بقوله: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

ودون ذلك التقرب إلى الله بالنوافل، ثم الإحسان في المعاملة فيما زاد على العدل الواجب، وهو يدخل في جميع الأقوال والأفعال ومع سائر الأصناف إلا ما حرم الإحسان بحكم الشرع. ١٤/٢٥٥

٨- فهذه الآية جمعت أصول الشريعة في الأمر بثلاثة، والنهي عن ثلاثة، بل في الأمر بشيئين وتكملة، والنهي عن شيئين وتكملة. ١٤/٢٥٨

٩- وعن ابن مسعود: أن هذه الآية أجمع آية في القرآن.

وعن قتادة: ليس مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به في هذه الآية، وليس مِنْ خُلُقٍ كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدح فيه، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق، ومذامِّها. ١٤/٢٥٩

١٠- وقد اهتدى الخليفة عمر بن عبدالعزيز رحمه الله إلى ما جمعته هذه الآية من

١- هكذا في الأصل، ولعل الصواب: وهي، أو: فهي. (م)

معاني الخير؛ فلما استخلف سنة ٩٩ كتب يأمر الخطباء بتلاوة هذه الآية في الخطبة يوم الجمعة، وتجعل تلاوتها عوضاً عما كانوا يأتونه في خطبة الجمعة من كلمات سب علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وفي تلاوة هذه الآية عوضاً عن ذلك السب دقيقة أنها تقتضي النهي عن ذلك السب؛ إذ هو من الفحشاء والمنكر والبغي.

ولم أقف على تعيين الوقت التي ابتدع فيه هذا السب، ولكنه لم يكن في خلافة معاوية رضي الله عنه. ٢٥٩/١٤

١١ـ وفي السيرة الحلبية أن الشيخ عز الدين بن عبدالسلام ألف كتاباً سماه (الشجرة) بَيَّن فيه أن هذه الآية اشتملت على جميع الأحكام الشرعية في سائر الأبواب الفقهية، وسماه السبكي في الطبقات (شجرة المعارف). ٢٦٠/١٤

١٢ـ وقد وُصِفَ إبراهيم ـ عليه السلام ـ بأنه كان أمة.

والأمة: الطائفة العظيمة من الناس التي تجمعها جهة جامعة.

وتقدم في قوله ـتعالى ـ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ في سورة البقرة، وَوَصْفُ إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ بذلك وصفٌ بديع لمعنيين: **أحدهما:** أنه كان في الفضل والفتوة والكمال بمنزلة أمة كاملة، وهذا كقولهم: أنت الرجل كل الرجل، وقول البحتري:

ولم أر أمثال الرجال تفاوتاً ... لدى الفضل حتى عد ألف بواحد

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «معاذ أمة قانت لله».

والثاني: أنه كان أمة وحده في الدين؛ لأنه لم يكن في وقت بعثته موحد لله

غيره؛ فهو الذي أحيا الله به التوحيد، وبثه في الأمم والأقطار، وبنى له مَعْلَماً عظيماً وهو الكعبة، ودعا الناس إلى حَجِّه؛ لإشاعة ذكره بين الأمم، ولم يزل باقياً على العصور.

وهذا كقول النبي ﷺ في خطر بن مالك الكاهن: «**وأنه يبعث يوم القيامة أمة وحده**».

رواه السهيلي في الروض الأنف.

ورأيت رواية أن النبي ﷺ قال هذه المقالة في زيد بن عمرو بن نفيل. ١٤/٣١٥ـ٣١٦

١٣ـ **وقد علم من هذا أن دين الإسلام منزه عن أن تتعلق به شوائب الإشراك**؛ لأنه جاء كما جاء إبراهيم معلناً توحيداً لله بالإلهية، ومجتثاً لوشيج الشركِ.

والشرائعُ الإلهية كلها ـ وإن كانت تحذر من الإشراك ـ فقد امتاز القرآن من بينها بسد المنافذ التي يتسلل منها الإشراك بصراحة أقواله، وفصاحة بيانه، وأنه لم يترك في ذلك كلاماً متشابهاً كما قد يوجد في بعض الكتب الأخرى، مثل ما جاء في التوراة من وصف اليهود بأبناء الله، وما في الأناجيل من موهم بُنُوَّة عيسى ـ عليه السلام ـ لله ـ سبحانه ـ عما يصفون. ١٤/٣١٩

١٤ـ ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾.

يتنزل معنى هذه الآية منزلة البيان لقوله: ﴿ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾ فإن المراد بما أوحي إليه من اتباع ملة إبراهيم هو دينُ الإسلام، ودينُ الإسلامِ مبنيٌّ

على قواعد الحنيفية؛ فلا جرم كان الرسول ﷺ بدعوته الناس إلى الإسلام داعياً إلى اتباع ملة إبراهيمَ.

ومخاطبةُ اللهِ رسولَه ﷺ بهذا الأمر في حين أنه داعٍ إلى الإسلام، وموافقٌ لأصول ملة إبراهيم ـ دليل على أن صيغة الأمر مستعملة في طلب الدوام على الدعوة الإسلامية مع ما انضم إلى ذلك من الهداية إلى طرائق الدعوة إلى الدين.

فتضمنت هذه الآية تثبيت الرسول ﷺ على الدعوة وأنْ لا يؤيسه قول المشركين له: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ وقولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ وأن لا يصده عن الدعوة أنه ـتعالى ـ لا يهدي الذين لا يؤمنون بآيات الله؛ ذلك أن المشركين لم يتركوا حيلة يحسبونها تثبط النبي ﷺ عن دعوته إلا ألقوا بها إليه؛ من تصريح بالتكذيب، واستسخار، وتهديد، وبذاءة، واختلاق، وبهتان، كما ذلك محكي في تضاعيف القرآن وفي هذه السورة؛ لأنهم يجهلون مراتب أهل الاصطفاء، ويزنونهم بمعيار موازين نفوسهم؛ فحسبوا ما يأتونه من الخزعبلات مثبطاً له، وموشكاً لأن يصرفه عن دعوتهم. ١٤/٣٢٥ـ٣٢٦

١٥ـ **فالحكمة:** هي المعرفةُ المُحْكَمَةُ، أي الصائبة المجردة عن الخطأ؛ فلا تطلق الحكمة إلا على المعرفة الخالصة عن شوائب الأخطاء، وبقايا الجهل في تعليم الناس، وفي تهذيبهم؛ ولذلك عرفوا الحكمة بأنها: «معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بحسب الطاقة البشرية».

بحيث لا تلتبس على صاحبها الحقائق المتشابهة بعضها ببعض، ولا تخطئ في العلل والأسباب.

وهي اسم جامع لكل كلام أو علم يراعى فيه إصلاح حال الناس واعتقادهم

إصلاحاً مستمراً لا يتغير.

وقد تقدم الكلام عليها عند قوله -تعالى-: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ﴾ في سورة البقرة مفصلاً فانظره.

وتطلق الحكمة على العلوم الحاصلة للأنبياء، ويرادفها الحكم.

والموعظة: القول الذي يُلَيِّن نفس المقول له لعمل الخير.

وهي أخص من الحكمة؛ لأنها حكمة في أسلوب خاص لإلقائها.

وتقدمت عند قوله -تعالى-: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ ﴾ في سورة النساء.

وعند قوله: ﴿ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ في سورة الأعراف.

وَوَصْفُها بالحسن تحريضٌ على أن تكون لَيِّنة مقبولة عند الناس، أي حسنة في جنسها، وإنما تتفاضل الأجناس بتفاضل الصفات المقصودة منها.

وعطف (الْمَوْعِظَةِ) على (الْحِكْمَةِ) لأنها تُغَاير الحكمة بالعموم والخصوص الوجهي؛ فإنه قد يسلك بالموعظة مسلك الإقناع؛ فمن الموعظة حكمة، ومنها خطابة، ومنها جدل.

وهي من حيث ماهيتها بينها وبين الحكمةِ العمومُ والخصوصُ من وجه، ولكن المقصود بها ما لا يخرج عن الحكمة والموعظة الحسنة بقرينة تغيير الأسلوب؛ إذ لم يُعْطَفْ مصدرُ المجادلة على الحكمة والموعظة بأن يقال: والمجادلة بالتي هي أحسن، بل جيء بفعلها؛ تنبيهاً على أن المقصود تقييد الإذن فيها بأن تكون بالتي هي أحسن، كما قال: ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾.

والمجادلة: الاحتجاج لتصويب رأي، وإبطال ما يخالفه أو عمل كذلك.

ولما كان ما لقيه النبي ﷺ من أذى المشركين قد يبعثه على الغلظة عليهم في المجادلة أمره الله بأن يجادلهم بالتي هي أحسن.

وتقدمت قريباً عند قوله: ﴿ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا ﴾.

وتقدمت من قبل عند قوله: ﴿ وَلا تُجَادِلْ عَنْ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ في سورة النساء.

والمعنى: إذا ألجأتك الدعوة إلى محاجة المشركين فحاججهم بالتي هي أحسن.
١٤/٣٢٧_٣٢٨

١٦ـ وقيدت الموعظة بالحسنة ولم تقيد الحكمة بمثل ذلك؛ لأن الموعظة لما كان المقصود منها غالباً رَدْعَ نفسِ الموعوظ عن أعماله السيئة أو عن توقع ذلك منه ـ كانت مظنةً لصدور غلظةٍ من الواعظ، ولحصول انكسار في نفس الموعوظ، أرشد الله رسوله أن يتوخى في الموعظة أن تكون حسنة، أي بإلانة القول، وترغيب الموعوظ في الخير، قال ـتعالى ـ خطاباً لموسى وهارون: ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾.

وفي حديث الترمذي عن العرباض بن سارية أنه قال: «**وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون**» الحديث.

وأما الحكمة: فهي تعليم لمتطلبي الكمال من معلم يهتم بتعليم طلابه؛ فلا تكون إلا في حالة حسنة؛ فلا حاجة إلى التنبيه على أن تكون حسنة.

والمجادلة لما كانت محاجة في فعل أو رأي؛ لقصد الإقناع بوجه الحق فيه فهي لا

تعدو أن تكون من الحكمة، أو من الموعظة، ولكنها جعلت قسيماً لهما هنا بالنظر إلى الغرض الداعي إليها.

وإذ قد كانت مجادلة النبي ﷺ لهم من ذيول الدعوة وُصِفَتْ بالتي هي أحسن كما وصفت الموعظة بالحسنة. ٣٢٩/١٤

١٧ـ **والآية تقتضي أن القرآن مشتمل على هذه الطرق الثلاثة من أساليب الدعوة**، وأن الرسول ﷺ إذا دعا الناس بغير القرآن من خطبه ومواعظه وإرشاده يسلك معهم هذه الطرق الثلاثة؛ وذلك كله بحسب ما يقتضيه المقام من معاني الكلام ومن أحوال المخاطبين من خاصة وعامة.

وليس المقصودُ لزومَ كونِ الكلامِ الواحدِ مشتملاً على هذه الأحوال الثلاثة، بل قد يكون الكلام حكمةً مشتملاً على غلظة ووعيد وخالياً عن المجادلة.

وقد يكون مجادلة غير موعظة، كقوله ـتعالى ـ: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَتَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

وكقول النبي ﷺ: «**إنك لتأكل المرباع وهو حرام في دينك**».

قاله لعدي ابن حاتم وهو نصراني قبل إسلامه. ٣٣٠/١٤

١٨ـ **ومن الإعجاز العلمي في القرآن** أن هذه الآية جمعت أصول الاستدلال العقلي الحق، وهي البرهان، والخطابة، والجدل المعبر عنها في علم المنطق بالصناعات، وهي المقبولة من الصناعات.

وأما السفسطة[١] والشعر فيربأ عنهما الحكماء الصادقون بَلْهَ الأنبياء والمرسلين. ٣٣١/١٤

١٩ـ ورغَّبهم في الصبر على الأذى، أي بالإعراض عن أذى المشركين، وبالعفو عنه؛ لأنه أجلب لقلوب الأعداء؛ فوصف بأنه خير، أي خير من الأخذ بالعقوبة، كقوله ـتعالى ـ: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾، وقوله: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾. ٣٣٦/١٤

٢٠ـ ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) ﴾.

خصَّ النبي ﷺ بالأمر بالصبر للإشارة إلى أن مقامه أعلى؛ فهو بالتزام الصبر أولى، أخذاً بالعزيمة بعد أن رخص لهم في المعاقبة.

وجملة: ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ معترضة بين المتعاطفات، أي وما يحصل صبرك إلا بتوفيق الله إياك.

وفي هذا إشارة إلى أن صبر النبي ﷺ عظيم؛ لأنه لقي من أذى المشركين أشد مما لقيه عموم المسلمين؛ فصبره ليس كالمعتاد؛ لذلك كان حصوله بإعانة من الله.

١ـ السفسطة: لفظ معرب مركب في اليونانية من كلمتين: (سوفيا) وهي الحكمة، و(اسطس) وهو المموه؛ فمعنى السفسطة: حكمة مموهة، ويراد بالسفسطة: التمويه والخداع، والمغالطة في الكلام.

والغرض من ذلك: تغليط الخصم، وإسكاته.

والسوفسطائية طائفة من الفلاسفة تقوم على إنكار الحقائق، والقياسات الوهمية. (م)

وحذره من الحزن عليهم إن لم يؤمنوا كقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

ثم أعقبه بأن لا يضيق صدره من مكرهم.

وهذه أحوال مختلفة تحصل في النفس باختلاف الحوادث المسببة لها؛ فإنهم كانوا يعاملون النبي مرة بالأذى علناً، ومرة بالإعراض عن الاستماع إليه، وإظهار أنهم يغيظونه بعدم متابعته، وآونةً بالكيد والمكر له، وهو تدبير الأذى في خفاء. ١٤/٣٣٦ـ٣٣٧